رابطة العالم الإسلامي
الأمانة العامة
الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات



من مواصفات الخطاب الديني الناجح

إعداد
الدكتور نعمان جغيم
الأستاذ بجامعة السلطان الشريف علي الإسلامية – سلطنة بروناي

مقدم إلى مؤتمر
الدعوة الإسلامية.. الحاضر والمستقبل
الذي تنظمه رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة
٤ – ٦ / ذو الحجة / ١٤٣٢ هـ
٣١ / ١٠ – ٢ / ١١ / ٢٠١١ م



رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف : ٥٦٠٠٩١٩ ٢ ٠٠٩٦٦ – الفاكس : ٥٦٠١٣١٩ – ٥٦٠١٢٦٧

برقياً : رابطة – مكة ، تلكس : ٥٤٠٠٠٩ وَ ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

مقدمة

الخطاب الناجح هو الخطاب الذي ينتج عنه أثر عملي في حياة المخاطَبين، بتغييرٍ في أفكارهم وسلوكهم؛ولكي يكون الخطاب ناجحاً، فلابد من توفر صفات في صاحب الخطاب وصفات في الخطاب ذاته، وأهم ما ينبغي توفُّره في صاحب الخطاب الإسلامي: الإخلاص، فهو أساس نجاح العمل، وتمثُّل صاحب الخطاب بما يقول؛ لأن أثر القدوة العملية أكبر من أثر الكلام المجرد، والكفاءة التي تجعل صاحب الخطاب قادراً على اختيار المضمون المناسب.

ومن ناحية ثانية؛ لابد من توفُّر صفات في الخطاب؛ من حيث الإعداد، وطريقة العرض، ومواصفات المضمون.

وهذه الورقة عرض للصفات التي إذا توفرت في الخطاب أسهمت في نجاحه بإذن الله تعالى،وهي صفات بعضها يتعلق بالجوانب الشكلية والفنية للخطاب، وبعضها بمضمون الخطاب.

تحديد الهدف من الخطاب

إن تحديد الهدف العام والأهداف الجزئية للخطاب؛ يعد الخطوة الأولى التي تسبق الإعداد، وتحديد الهدف يُبنَى على التعرُّف على من يُوجَّه إليهم الخطاب؛ من حيث استعداداتهم العقلية والنفسية، واحتياجاتهم، وما يريد منهم صاحب الخطاب. وبناء على تحديد تلك الأهداف؛ يكون تحديد نوع المعلومات التي تقدمها والطريقة التي تعرضها بها: هل الهدف من الخطاب هو التذكير، أم الإعلام، أم التعليم، أم الإقناع، أم التحفيز والترغيب والترهيب؟

فإذا كان الهدف مجرد التذكير بشيء معلوم لدى المستمعين أو إعلامهم بحدث، فإن الأمر هيِّن، أما إذا كان الهدف التعليم؛ فإن الأمر يحتاج إلى وضع مخطط لكيفية إفهام الناس الأفكار التي نريد تعليمهم إياها، وإذا كان الهدف هو الإقناع؛ فإننا نحتاج إلى التركيز على الأدلة والبراهين التي تدعم الأفكار التي نريد الإقناع بها، وإذا كان الهدف هو التحفيز والترغيب والترهيب؛ فإننا نحتاج للتركيز على بيان فوائد الشيء المرغَّب فيه، وأضرار الشيء المنهي عنه، وتدعيم ذلك بالأمثلة الواقعية.

الإعداد للخطاب

«تذكّر دائماً أن الذي يفشل في التخطيط الجيد؛ فهو إنما يخطط للفشل»[1].

إن الإعداد الجيد يعد المفتاح الأساس لنجاح الخطاب، وقد يظن البعض أن الاستعداد لإلقاء خطاب أو كتابة مقال؛ إنما يكون مطلوباً عندما لا تكون لدى الملقي معلومات كافية عن الموضوع، فيحتاج للتحضير ليتعلم ما ينوي إلقاءه، ولكن الواقع أن الحاجة للإعداد أكبر من ذلك؛ فالتحضير قد يكون بتعلُّم المعلومات التي ينوي المخاطِب تقديمها، وقد يكون باستحضارها وتذكُّرها، ويكون بتحديد ما ينبغي على الملقي تقديمه بحسب الوقت المحدد، وبحسب الهدف من الخطاب، وبحسب الاستعداد النفسي والعقلي للمخاطبين، ويكون أيضاً بتحديد الطريقة المناسبة لعرض ما يريد تبليغه للمتلقين.

---

(١) http://www.ljlseminars.com/elements.htm

وللتحضير جانبان مهمان: أحدهما المعلومات التي ينوي الملقي تقديمها، والثاني: طريقة التقديم؛ فكما يحتاج الشخص إلى التحضير الجيد للمعلومات التي يقدمها، يحتاج إلى إعداد مماثل للطريقة التي يعرض بها تلك المعلومات، والاقتصار على أحد الجانبين دون الآخر يؤدي دون شكّ إلى عدم تحقيق الخطاب للأهداف المرجوة منه، والإعداد الناجح هو الذي ينجح صاحبه في تحديد المعلومات المناسبة للمقام، وتحديد الطريقة المُثلى لتقديم تلك المعلومات في ذلك المقام.

ومن أجل التمكن من إعداد خطاب أو مقال فعّال؛ يجب أن تتوفر لديك المعلومات المهمة حول الموضوع، ولابد من التفاني في إعداده، وأن تتوفر لديك الرغبة في تقديمه، واجمع من المعلومات أكثر مما تحتاج إليه في كلامك؛ لأن ذلك سيجعل من اليسير عليك انتقاء جميع وأفضل ما تحتاج إليه، وتذكّر أنك إذا قدمتَ معلومات أقل من المطلوب؛ فسيعتبرك المتلقي قليل البضاعة، وإذا قدمتَ أفكاراً كثيرة؛ فسيكون من الصعب عليه التعرّف على الأفكار المهمة التي تريد تبليغها[١].

وبعد الفراغ من جمع المادة العلمية؛ قم بتصنيفها تصنيفاً أولياً في مراتب عامة، ثم عُد للتدقيق والانتقال من التصنيف العام إلى الخاص[٢]، وقُمْ بالمراجعة والتحرير عدة مرات، فعلى قدر تكرار المراجعة والتحرير؛ تتمكّن من تجويد ما كتبتَه.

---

(١) http://pac.org/content/speechwriting-101-writing-effective-speech

(٢) http://pac.org/content/speechwriting-101-writing-effective-speech

طريقة العرض

المقدمة: ابدأ بإعطاء لمحة عامة عن العناصر التي ستتحدث عنها، لتساعد المتلقي على تحصيل فكرة عامة عما تنوي تقديمه، وتوقُّع العنصر الذي ستنتقل إليه، والربط بينه وبين ما سبق.

إن الفقرات الأولى من كلامك مهمة للمتلقي لتحديد مصداقيتك والرغبة في متابعتك، والمقدمة يجب أن تكون إعداداً للمتلقي بإعلامه بما ستتحدث عنه وما يتوقع تحصيله منه[(١)].

الموضوع: اذهب مباشرة إلى القضايا التي تريد طرقها في كلامك، فاحصرها في بضع نقاط (بمعدل ثلاث نقاط رئيسة، وبحد أقصى خمس نقاط)، ثم بيِّن كل نقطة ودعِّمها بالشواهد والبيانات التوضيحية والأمثلة الواقعية، كن مقتنعاً ومتحمساً لأفكارك، فإن قناعتك بما تقدمه تزيد في قوة الإقناع به[(٢)].

وأثناء عرض كل نقطة؛ ابدأ بتلخيص الفكرة التي تريد تبليغها في عبارة أو عبارات قليلة بأسلوب سهل، ثم انتقل إلى التفريع، فابدأ بتقرير الفكرة العامة، وقسِّمها إلى أفكار جزئية، ثم تناول كل فكرة جزئية بالعرض والتحليل والتدليل.

---

(١) http://pac.org/content/speechwriting-101-writing-effective-speech,
http://www.speech-topics-help.com/effective-speech.html

(٢) http://pac.org/content/speechwriting-101-writing-effective-speech,
http://www.speech-topics-help.com/effective-speech.html

- **الترتيب** : رتِّب إلقاء الأفكار ترتيبا منطقياً متناسقاً، بحيث تُسلِّم كل فكرة إلى ما بعدها، فتسلسل الأفكار مهم جداً للاستيعاب ولجذب انتباه المستمع، ومن السهل جداً شرود المستمع إذا لم تكن الأفكار متسلسلة، ويمكن أن يكون التسلسل زمنياً، أو ببيان المشكلة وسببها وحلها، أو بالمقارنة وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف لبيان إيجابيات وسلبيات الشيء، أو بالاستنباط القائم على السؤال الافتراضي "لو"، مع ذكر الحقائق ثم استنباط النتيجة، أو بالاستقراء القائم على عرض مجموعة من الحقائق الجزئية والخروج منها بنتائج عامة(١).

- ركِّز على توضيح نهاية عنصر وبداية عنصر آخر منفصل عنه، وذلك بتلخيص العنصر السابق والإعلان عن بدء عنصر جديد؛ فهذا الأمر يساعد المستمع على الفهم، كما يجعل الإلقاء انسيابياً متناسقاً.

- دعّم أفكارك بأدلة منطقية قوية، وأقوى الأدلة هي الأمثلة العملية التي تقرِّب الصورة إلى ذهن المتلقي وتؤثر فيه، وانظر كيف امتلأ القرآن الكريم بضرب الأمثال؛ لأنها من أقوى وسائل الإقناع؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ (الإسراء) وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ (الكهف)، وقال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٥).

وفي السُّنة النبوية نماذج كثيرة؛ كبيان أن الصلوات تمحو السيئات، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل الصلوات الخمس،

---

(١) http://professionalpractice.asme.org/Communications/NonTech/From_Technical_NonTechnical.cfm

كمثل نهر جارٍ غمرٍ على باب أحدكم، يغتسل منه كل يوم خمس مرات)[١].
ومنها حديث الأعرابي الذي شكّ في عفة زوجته التي ولدت له غلاماً لا يشبهه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ، فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود! فقال النبي ﷺ :(هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حُمر، قال: هل فيها من أورَق؟ قال: إن فيها لَوُرْقاً، قال: فأنَّى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عِرق، قال: وهذا عسى أن يكون نزعة عِرق)[٢].

- تكرار النقاط والعبارات المهمة مفيد في زيادة انتباه السامع وترسيخ الفكرة بذهنه؛ فعن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ : (كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه)[٣].

- توقَّع الأشياء التي يمكن أن تُسأل عنها، وكُن مستعداً للجواب عنها.

- أعد قراءة الأسئلة التي تُوجه إليك على مسامع السائل؛ للتأكد من إدراك ما يريده، ولكي يكون ذلك فرصة لك للتفكير في جواب جيد عن السؤال.

- لا ترتبك أثناء الإلقاء، وكن مستعداً، واستعمل الحركات المناسبة للمقام.

الخاتمة : اختم عرضك بالتذكير بالنقاط الأساس التي تحدثتَ عنها وتريد بقاءها في أذهان المستمعين.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الصلوات الخمس.

(٢) صحيح مسلم، كتاب اللعان، (حديث١٥٠٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليُفهم عنه.

الأدوات المساعدة

تحديد الأدوات المساعدة على الإلقاء؛ يخضع للإمكانات المتوفرة، ونوعية المعلومات التي تريد تقديمها، والهدف من تقديمها.

فمثلاً: قصيدة شعرية أو خطبة حماسية أو موعظة؛ لا يناسبها العرض من خلال الشرائح المرئية التي تُعرض بالوسائل التكنولوجية الحديثة، لأن إلقاء مثل هذا يعتمد على إثارة عاطفة المستمع وتملُّك وجدانه قبل عقله، والعرض المرئي يشتِّت تركيز المستمع، فيُضعف تجاوبه مع الخطاب العاطفي، ولا تتحقق الأهداف المرجوة منه.

إن تدعيم الإلقاء الشفوي بالعرض المرئي؛ يكون في الموضوعات المعقدة ذات التفريعات التي تحتاج إلى شروح وبيانات، فيكون العرض المرئي معيناً للمستمع على التركيز وإدراك العناصر والتفريعات ومتابعة الانسياب المنطقي لأفكار الموضوع وتفرعاته، أما الموضوعات البسيطة والإلقاء الذي يكون القصد منه إثارة عاطفة المستمع، أو الوعظ والتذكير بما هو معلوم لدى المستمعين؛ فلا حاجة فيه للاستعانة بالوسائط المرئية، وفِعْلُ ذلك يكون تكلُّفا يؤثّر سلباً في تركيز المستمع، ويسهم في فشل الخطاب في تحقيق أهدافه، وقد رأيتُ في إحدى البلدان؛ استخدام الشرائح المرئية في خطبة الجمعة في المساجد، ولكن ذلك لم يحقق نجاحاً للخطبة ولم يؤثر في المستمعين؛ حيث كان الخطيب يتحدث، والشباب مشغولون بهواتفهم النقالة.

وينبغي عند استخدام الشرائح المرئية مراعاة العناصر الآتية:

- أن يكون الخط كبيراً واضحاً للمشاهدين.
- عدم المبالغة في تضمين الشرائح للصور والمؤثرات الصوتية إلى درجة تؤثر في المحتوى، وتجعل المستمع ينشغل بها عن المضمون.
- تجنب حشو الشرائح بمعلومات كثيرة، تُصعب على المستمع قراءتها بسرعة.
- تجنب القراءة من الشرائح، إلا ما كان بقصد الإبراز والتأكيد، ولكن ضمِّن الشرائح العناوين والنقاط الرئيسة التي تتحدث عنها في ذلك العنصر.
- استعمل كلمات وعبارات ذات معنى واضح ومحدد؛ حتى تُسهل على المستمع استيعاب ما تقوله.

التكيُّف مع الوقت المحدد للخطاب

عندما يكون الوقت المخصص للخطاب محدداً، فمن مقتضيات نجاحه أن يكيِّف الملقي خطابه مع الوقت المسموح به، بحيث يتمكن من تبليغ ما يريد تبليغه للمستمعين دون إخلال بالوقت، وكم شهدنا في مؤتمرات وندوات كيف يأتي أشخاص لإلقاء كلماتهم في وقت محدود لا يتّسع لجميع ما هو مكتوب في ورقة البحث، ويأتي الملقي بورقته، ويبدأ بمقدمات وتعريفات، غالباً ما تكون قيمتها ثانوية، وقبل أن يصل إلى الأفكار التي يريد تبليغها؛ يخبره مدير الجلسة بأنه لم يبق سوى دقائق معدودة من الوقت المخصص له، فيبدأ الملقي في الاعتذار والشكوى من ضيق الوقت، ويرتبك في الإلقاء ويتيه بين تقليب أوراق بحثه سعياً لتحديد ما يلقيه وما يتجاوزه، وينتهي الوقت دون أن يتمكن من تبليغ ما أراد تبليغه

مع انزعاج المستمعين واستيائهم، وسبب هذا عدم استعداد الملقي بتحديد ما ينوي تبليغه حسب الوقت المحدد له، أما الملقي الناجح فيستعدّ بتحديد ما يلقيه ملخصاً، فيتمكن من تبليغ ما يريده في الوقت المحدد له دون ارتباك أو شكوى من ضيق الوقت.

الترويح عن المتلقّين

إذا كنتَ صاحب طرفة؛ فإن تضمين كلامك طرائف ذات صلة بالموضوع في غاية الأهمية لجلب انتباه المستمعين والترويح عنهم، ولكن لا تُكثر من ذلك فتخرج بالمقام عما يقتضيه من جِدٍّ؛ أما إذا لم تكن صاحب طرفة فلا تتكلّف؛ فإنك تُفسد خطابك بذلك، وتذكَّر دائماً أن هذه العناصر بمثابة المِلح أو البهار للطعام، إذا زاد عن حده أفسد طعمه، وتذكر دائما أن التكلّف يُفسد أكثر مما يُصلح.

وإذا كنتَ صاحب خبرة في المجال الذي تتحدث فيه؛ فإن تدعيم الخطاب بحوادث وقعت لك مفيد جداً، أما إذا لم تكن كذلك فلا تتكلّف إيراد وقائع لا صلة لها بالموضوع، ويمكنك الاستعانة بوقائع مما قرأتَ أو سمعتَ.

تذكَّر أن الهدف هو استيعاب المستمعين لما تقدمه وبقاؤه في ذاكرتهم، وليس إرهاقهم وإصابتهم بالملل، لذا فإن خير الكلام ما قلّ ودلّ، واعلم أن متوسط قدرة الإنسان على الاستماع بتركيز تقدر بـ ٢٠-٢٥ دقيقة؛ لذا اجعل فواصل أثناء الحديث إذا استغرق وقتاً طويلا، في شكل تمرينات وأسئلة للمناقشة، فإن كان الموضوع لا يحتمل؛ فيمكن أن تكون الفواصل على شكل دردشة لبضع دقائق ثم العودة إلى الموضوع، ولا تتكلّف إعطاء

تمرينات غير مناسبة للموضوع، وقد شهدتُ ورشات عمل يقدم فيها المحاضر تمرينات ساذجة لأساتذة جامعيين، ظنًّا منه أنه بذلك يقدم فواصل للترويح عنهم، ولكنه في الواقع يزيدهم ضجراً ومَللاً.

الإيجاز

إن معيار نجاح الخطاب ليس في كمّ المعلومات التي فيه، وإنما في الأثر الإيجابي الذي يتركه الخطاب في المخاطَبين به، والثمار العملية التي تنتج عنه، وواجب الداعي ليس مجرد البلاغ؛ بل البلاغ المبين، ومن خصائص البلاغ المبين: أن يكون بطريقة تُيسِّر العمل به، لذا كان النبي ﷺ يتخوَّل الصحابة رضي الله عنهم بالموعظة، فعن شقيق أبي وائل قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يُذكرنا كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إنّا نحب حديثك ونشتهيه، ولَوَدِدْنا أنك حدثْتَنا كل يوم، فقال: (ما يمنعني أن أُحدثكم إلا كراهية أن أُمِلَّكم؛ وإن رسول الله ﷺ كان يتخوّلنا بالموعظة في الأيام؛ كراهية السآمة علينا)[١].

والإيجاز في الخطاب تتحكّم فيه ظروف الخطاب والغرض منه، فإذا كان الخطاب تعليمياً في جلسة علمية حضورها اختياري وأُعِدّت لها الظروف المناسبة للإطالة؛ فلا بأس بذلك، أما إذا كانت الظروف غير مناسبة للإطالة؛ فإن اللازم هو الإيجاز، كخطبة الجمعة التي حضورها واجب على كل مسلم؛ يحضرها المريض وصاحب الحاجة المتعجل، وقد يكون المسجد لا يتّسع للمصلين، فيجلسون خارجه في حرّ الصيف أو برد الشتاء، وكل ذلك من موانع التركيز مع الخطيب، فيكون ذهن المصلي

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة.

معلَّقاً بوقت فراغ الخطيب لا بما يقوله، وقد كانت خُطب الرسول ﷺ قصيرة، وكان كلامه معدوداً، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إن طول صلاة الرجل وقِصر خُطبته مَئِنَّة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان سحراً)[1]، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: (كنت أصلي مع رسول الله، فكانت صلاته قصداً، وخطبته قصداً)[2].

من الأفضل في خُطبة الجمعة أن يركز الخطيب على مسألة واحدة فقط، مع إفاضة البيان في مظاهر التطبيق العملي لها، فيرشد الناس إلى ما ينبغي عليهم فعله في حياتهم اليومية للتحلي بتلك الفضيلة أو التخلص من تلك الرذيلة، لا أن يسعى إلى تعليمهم أشياء كثيرة ظناً منه أنها فرصة سانحة ينبغي استغلالُها لتعليمهم أكبر قدر ممكن، فتكون المحصلة تركيزاً على الجانب النظري فقط وكثرة الكلام الذي يُنْسِي بعضُه بعضاً، وتكون الثمرة قليلة، ويذهب الجهد في غير فائدة.

التحري عند اختيار الأدلة الشرعية

إن الاستدلال على أحكام الإسلام وقيمه ينبغي أن يقتصر على ما هو مقبول من الأدلة الشرعية، حيث يجب ألا تقلّ الأحاديث المستدلّ بها عن درجة الحَسن، لا فرق في ذلك بين الأحكام وفضائل الأعمال، ومع أن من العلماء من أجاز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال؛ إلا أن سدّ باب تلك الذريعة أَولى؛ لأن فتح باب فضائل الأعمال قد يكون ذريعة إلى

(١) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

الأخذ بالضعيف في الأحكام[١]؛ ففضائل الأعمال لا تقلّ عن الأحكام؛ لأن في كليهما نسبة الأمر إلى الرسول ﷺ دون تأكّد من ثبوت تلك النسبة، والمحظور في العمل بالحديث الضعيف هو نسبة ما لم يثبت عن الرسول ﷺ، ولا فرق بين كون ذلك في فضائل الأعمال أو مما تترتب عليه الأحكام والحقوق، وفضلاً عن هذا؛ فإن في القرآن الكريم والسنّة الثابتة ما يحيط بجميع فضائل الأعمال التي يمكن أن يتصورها الإنسان، وفي ذلك غِنًى عن البحث عن الضعيف والواهي من الآثار لتدعيم ما هو قائم بذاته، وهو في غِنى عن مزيد من الدعم، وإن ولع البعض بإكثار الأدلة والشواهد - بِغَضّ النظر عن صحتها إلى درجة الإغراب وغير المعقول أحياناً - من الآفات التي أصابت الخطابة والتأليف لدى المتأخرين، ولو أن الاستدلال بالضعيف اقتصر على المواضع التي لا يجد فيها المرء ما يستدل به سوى ذلك الضعيف لهان الخَطب، ولكن المشكلة أنك تجد في الموضوع من الأدلة الصحيحة ما يغني عن ذلك الضعيف أو المنكر، لكن يظن الخطيب أنه بالإكثار من الشواهد يزيد في إقناع المتلقي، والأمر غير ذلك؛ حيث إن الإكثار من الشواهد الضعيفة يُضعف المسألة أكثر مما يُضفي عليها وضوحاً وإقناعاً، ويكفي للمسلم في المسألة دليل واحد صحيح يبيّن حكمها أو فضلها، مع تفصيل الآثار الإيجابية أو السلبية لذلك، وبيان التطبيقات العملية التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية، فذلك أنفع.

(١) هذا ما يراه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي استغرب ما أورده الإمام النووي من إجماع الحفاظ على العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ورأى أن الأولى خلاف ذلك. انظر كتابه: أليس الصبح بقريب، "التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية"، قرأه ووثق شواهده وقدم له: محمد الطاهر الميساوي، كوالالمبور: دار التجديد للطباعة والنشر والترجمة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٢٦.

الاستجابة لمتطلبات الواقع

من خصائص الخطاب الناجح: التفاعل مع الواقع الذي يعيشه المخاطَبون، ويوجههم إلى موقف الإسلام من مجريات الحياة وما ينبغي على المسلمين فعلُه. ولكن ينبغي أن يكون الداعي على وعي وحذر من الإفراط في الانسياق وراء كل قضايا الساعة؛ حتى لا ينجرّ إلى معارك هامشية لا تستحق أن تُهدر فيها طاقات المسلمين وأوقاتهم، وليس الخوض فيها مما يُسهم في بناء المجتمع المسلم، بل قد يَنتج عن الخوض فيها مفاسد أكثر مما يرجى من مصالح؛ فبعض البدع والأفكار الضالة التي لم تنتشر بين الناس ولا يتأثر بها عامة المسلمين؛ إهمالُها والسكوت عنها؛ أفضل طريق لإماتتها.

ومن أمثلة ذلك قضية سَلمان رشدي، الذي كان رجلاً مغموراً وكتب روايته المغمورة (آيات شيطانية)، ولكن الانشغال الزائد للمسلمين بأمثاله من الحثالة، حوّله إلى نجم عالمي، وأدى إلى انتشار الرواية، وأُهدرت في تلك المعركة الهامشية طاقات كبيرة وأوقات ثمينة، بل وأُهدرت أرواح كثيرة للمسلمين، ولو أن أول من تنبّه إليها من المسلمين تركها في مزبلة التاريخ، لما خرجت منها قطُّ.

ومن أمثلة ذلك أيضاً؛ ما نجده من إفراط أو تفريط في الحديث عن الأمور العامة للمسلمين، فتجد البعض يميل إلى تسييس غالب الأمور، الأمر الذي يؤدي إلى إهمال قضايا اجتماعية وخلقية وعلمية؛ هي أهم بكثير من القضايا السياسية التي يُخاض فيها، وأنفع لبناء مجتمع إسلامي، وفي المقابل نجد عند البعض عزوفاً كاملاً عن القضايا التي تُصنّف على أنها

سياسية، مع أنها من صلب الدين والواقع الاجتماعي الذي ينبغي التعرض له بالإرشاد والإصلاح، إذ لا يقوم مجتمع إسلامي حقيقي بدونه.

التركيز على الجانب العملي

يَكثر في المجالس العلمية المختصة والمحاضرات الأكاديمية؛ الحديث عن النظريات والتفصيل في الجوانب النظرية؛ أما في مجالس عامة الناس - كالخُطب في المساجد ومحاضرات التوعية - فإنه ينبغي التركيز فيها على التطبيقات والمظاهر العملية، وكيفية القيام بالعمل إن كان شيئاً مُرَغَّباً فيه، أو اجتنابه إن كان شيئاً منهيًّا عنه. تجد الخطيب يتحدث عن الربا، فيذكر التعريف اللغوي والاصطلاحي، وتقسيمات الفقهاء للربا، ولا يكاد يتطرق لمظاهر الربا وتطبيقاته في الحياة المعاصرة، فيخرج المستمعون - وكثير منهم لا خبرة له بلغة الفقهاء وتقسيماتهم - وقد علموا حرمة الربا وخطورته، ولكن لا يعلمون أين الربا في تعاملاتهم اليومية حتى يجتنبها!

ومما لا فائدة فيه أيضاً؛ خطب ومقالات الرثاء لحال المسلمين - وما أكثرها - إذ تثير الأسى والانفعال في نفوس السامعين، وقلّما تغيّر شيئاً من حالهم، والأولى من ذلك أن تحوَّل تلك الخطب والمقالات إلى سلسلة من البرامج والمقترحات العملية التي تسهم في المشروع الطويل لبناء المجتمع المسلم القوي، والخروج بالأمة من انحطاطها وهوانها، فكَبوة الأمة الإسلامية لها أسباب موضوعية كثيرة ومعقدة، تحتاج إلى جهود مضنية ومنظَّمة على مدى طويل للنهوض منها، ولتعود الأمة إلى مكانة السيادة والشهادة.

ومن القضايا العملية المهمة التي ينبغي على الخطاب الإسلامي التركيز

عليها؛ قضية تربية الأبناء، حيث إن الناظر في المجتمعات الإسلامية يجد أن الكثير من المسلمين يقصّرون بشكل واضح في العناية بتربية أبنائهم، وقد يظن البعض أنه قد أدى وظيفته الأسرية بمجرد توفير الطعام واللباس والسكن لأبنائه، وقد يكون البعض على وعي بضرورة تربية الأبناء، ولكنه لا يحسن تفاصيل ذلك، أو لا يريد أن يبذل في سبيل ذلك الوقت والجهد المطلوبين؛ ولقد رأيتُ في بعض البلاد كيف أن غير المسلمين يهتمون بتربية أبنائهم أكثر من المسلمين، وكانت نتيجة ذلك أن نسبة الفشل الدراسي والبطالة بين أبناء غير المسلمين؛ أقل بكثير مما هو عليه الحال بين المسلمين، كما أن نسبة تعاطي المخدرات وجرائم الأحداث بين أبناء المسلمين أعلى منها بين أبناء غير المسلمين، وترى الرجل من المداومين على المسجد، ولكنه يتجول مع بناته المتبرجات بلا خجل! وللأسف لا تجد بين الدعاة اهتماماً كافياً بهذا الموضوع رغم خطورته.

إن الاهتمام بتربية الأبناء على الخلق الحسن، والجِدّ والاجتهاد، والأمانة، والإتقان، واحترام حقوق الآخرين، والمحافظة على المرافق العامة والمصالح المشتركة، وآداب الاختلاف والتعامل مع الآخرين، والاستفادة من الوقت فيما يعود بالنفع على الفرد وأسرته ومجتمعه، وتقوى الله في السرّ والعلن، وغيرها من القيّم الفردية والاجتماعية؛ كل هذا أساس الإصلاح الاجتماعي، وإذا لم يكن لأصحاب الخطاب الديني مؤهلات علمية كافية للحديث عن أساليب التربية؛ فيمكن الاستعانة بالمختصين في التربية لتنظيم برامج ودورات متواصلة لتوعية الوالدين بأهمية تربية الأبناء ومجالاتها، وتعليمهم أسس تلك التربية وطرقها العملية.

تشجيع ثقافة الحوار والنقد

النقد نوع من المحاسبة والتقييم والتقويم، وله أصول أصيلة في الإسلام، فهو من باب النصح، فعن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة؛ قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١].

وهو يندرج ضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من صفات الأمة الإسلامية: يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ (التوبة). كما أنه نوع من التشاور في المسائل محلّ النقد، وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، فقال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨).

ومَهما كان مصدر النقد ونوعه، ومهما ترتب عليه من آثار جانبية إذا لم تراعى آدابه؛ فإنه مهم في تقييم الإيجابيات والسلبيات وتقويم الأخطاء وإتمام النقائص. وينبغي على أصحاب الخطاب الإسلامي عدم التبرُّم بالنقد مهما كان مصدره، حتى لو كان من الخصوم العلمانيين؛ فإن انتقادهم قد تكون له وجاهة وإفادة في التقويم، كما ينبغي التفريق بين نقد أحكام الإسلام وشرائعه والطعن فيها (وهذا الذي ينبغي التصدي له والرد على أصحابه)، وبين النقد الموجّه لأساليب الدعاة وممارساتهم؛ وهذا لا ينبغي

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

أن نصوِّره على أنه نقد للإسلام وطعن فيه؛ فقد يكون فيه حق يستفيد منه الداعية لتقويم مسيرته وتحسين أدائه.

ومما يؤسف له؛ أن المجتمعات الإسلامية- على اختلاف طبقات أصحابها وتوجهاتهم الفكرية- تتوجّس من النقد، وتصوِّره على أنه وسيلة للفُرقة والتشهير، ورغم كثرة الحديث عن الشورى والنصيحة؛ إلا أنك لا تكاد تجد لهما أثراً عملياً في ممارسات المسلمين، سواء على مستوى الأنظمة أو الجماعات والأحزاب؛ إسلامية كانت أو علمانية، وكثيراً ما يوصف الناقد بأنه مثير للفتنة، مفرِّق للصف، عميل لطرف آخر، وغيرها من الأوصاف، ولا شك في أن هناك من يستغل النقد لأغراض سيئة، رغم أنه ينبغي أن يكون بنَّاء وأن يتصف صاحبه بآدابه، ولكن الواقع أن منع النقد تحت هذه الشعارات؛ هو تكريس للاستبداد، وتستُّرٌ على النقائص والأخطاء.

انظر كيف مارس القرآن الكريم أشدّ أنواع النقد للمجتمع المسلم في أصعب الظروف وأشدّها على المجتمع، فالهزيمة في أُحد كانت فاجعة للمسلمين، وكان منطق الاستبداد (الذي يلجأ إلى فرض حالة الطوارئ وتكميم الأفواه في حال الصراع مع الأعداء؛ بحجة المحافظة على الأمن الوطني)؛ يقتضي التستّر على العيوب حتى لا تُفضَح الحال الداخلية للمسلمين أمام الأعداء؛ فيغريهم ذلك بمزيد من التهجم على المسلمين، لكن القرآن الكريم - بمنطق الحق- وجَّه أشد النقد للصف المسلم، وفضح جميع النقائص- حتى التي كانت أسراراً في نفوس البعض - وجعلها قرآناً يُتلى يعلمه العدوّ والصديق، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا

وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (آل عمران)، فانظر كيف كشف القرآن التنازع وعصيان أوامر القيادة، وأن من المسلمين من كان يريد الدنيا، وأن ما أصابهم من هزيمة هو بسبب أخطائهم وتقصيرهم.وانظر المزيد: (آل عمران: ١٤٠-١٧٩).

وفي أعقاب غزوة بدر؛ فرح المسلمون بما أنجز الله عز وجل لهم من نصر، فانتقد القرآن موقف المسلمين من الأَسرى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنفال)

التركيز على التكامل

إن ميدان الإصلاح في مجتمعاتنا واسع جداً، ومجالاته متعددة (في العقيدة، والعبادة، والأخلاق الفردية والاجتماعية والأسرة، والاقتصاد، والسياسة)، وهو في حاجة إلى جهود جبارة قد لا توفي بها جهود الدعاة على اختلاف اهتماماتهم وتوجهاتهم الفكرية، وينبغي أن ندرك أنه لن يتمكن تيار بعينه من الوفاء بجميع متطلبات الإصلاح،لذا على كل تيار أو جماعة؛ عمل ما يرونه لازماً لتحقيق الإصلاح في مجال اهتمام ونطاق قدرتهم وتخصُّصهم؛ دون سعْيٍ إلى احتكار الساحة وإفشال عمل الآخرين، إلا إذا كان عملهم منحرفاً بيِّن الانحراف عن خط أهل السنة والجماعة،ولا يعني التكاملُ سدَّ باب النقاش والنقد؛ فهذا أمر لابد منه، وهو صمام الأمان الواقي من الانحراف والاستمرار عليه،ولكن ينبغي تجنُّب تسفيه جهود الآخرين ومحاولة احتكار ساحة الدعوة والإصلاح.

احترام الرأي المخالف (أدب الخلاف)

الخلاف بين المسلمين نوعان: خلاف سائغ مبني على دليل، وخلاف مبني على جهل أحد الطرفين بالدليل أو انحرافه عن جادة الطريق وابتداعه، ومن حق الشخص أن يتبنى أو يرجح رأياً من الآراء الخلافية وأن ينتصر له وينافح عنه بالحجة والبرهان، وله أن يدعو إليه، ولكن عليه أن يحترم الرأي الآخر في الخلاف السائغ، ويحترم أصحابه، فلا يهاجمهم أو يسفِّه عقولهم، كما ينبغي مراعاة شعور المتلقين المخالفين في الرأي، فيُعرض رأيُهم دون تجريح.

ولنا في القرآن الكريم أُسوة، حيث أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالتزام آداب الحوار حتى مع الكفار الذين هم على ضلال بيِّن، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النحل)، وقوله: ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ (سبأ: ٢٤)؛ فإذا كنّا مطالبين بأن نجادل الكفار بالتي هي أحسن، فكيف الحال مع المسلمين؟

عن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: (المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده)[(١)].

والأفضل للمسلم أن يتعامل مع الواقع الذي لا يرضاه من منطلق الإصلاح، لا من منطلق التعنيف والتشهير؛ فمن وجد أفكاراً وممارسات يراها مخالفة للشريعة، فليتوجّه إلى أصحابها توجّه الناصح الدال على

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم مَن سلِم المسلمون من لسانه ويده، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل.

الخير، الذي يريد لهم الهداية، لأن التوجُّه إليهم توجُّه المعنِّف المشهّر بهم؛ يثير فيهم التعصّب لما هم عليه، ويبعث فيهم حمِية الجاهلية للدفاع عن أنفسهم، فيُعْرِضون عمّا يريد أن يوجههم إليه، وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (الإسراء)؛ أما مخاطبتهم خطاب الناصح الذي يرشدهم إلى ما هو خير مما هم عليه؛ فإنه لا يثير فيهم عصبية ولا حمية، ويجعلهم أقرب إلى قبول ما يُدعون إليه؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)[1]، وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ (طه)، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ (الإسراء).

وقد يتسرع الشخص في اتهام مخالفه بالشرك أو الضلال والكفر؛ دون مراعاة لعاقبة ما يقول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)[2]، وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه)[3].

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار. وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال من قال لأخيه المسلم: يا كافر.

الموضوعية والاعتراف بالخلل

قد ينساق بعض الدعاة في خِضم السجال الفكري مع العلمانيين أو غير المسلمين إلى التغاضي عمّا قد يكون من خلل عند أصحاب الفكر الديني، وعمّا تعيشه المجتمعات الإسلامية من قصور وخلل؛ إما بسبب عدم إدراك ذلك القصور والاعتقاد أنه شيء مقبول، أو من باب التستُّر على العورات وعدم إبدائها والاعتراف بها أمام الخصوم، وإذا لم يبادر أصحاب الخطاب الإسلامي بالكشف عما في المجتمعات الإسلامية من خلل وقصور، ويسعوا إلى إصلاحه وفق منهج الإسلام؛ فقد يستغله الليبراليون والعلمانيون وأعداء الإسلام لإحداث تغيير اجتماعي بطريقة لا يرضاها الإسلام.

ومما يمكن التمثيل به لذلك قضية تحرير المرأة في العالم الإسلامي، حيث تجد الشطط بادياً على الطرفين المتصارعين؛ فدعاة تحرير المرأة استغلوا واقعها المُزري في نَواحٍ كثيرة من العالم الإسلامي للعمل على إخراجها، ليس فقط من واقعها المُزري، بل من الالتزام بأحكام الشريعة وأدبها في اللباس والزينة والعلاقة مع الرجال، وفي المقابل نجد أصحاب الخطاب الديني يقفون في وجه حركة تحرير المرأة ويهملون واقعها المُزري في كثير من مناطق العالم الإسلامي، وكثيراً ما نجد الدعاة في دفاعهم عن مكانة المرأة؛ يلجؤون إلى مقارنتها بالمرأة في الجاهلية وفي العصور الوسطى، ويتجاهلون ما حققته المرأة المعاصرة من حقوق مشروعة تُقرّها الشريعة، في حين أن المرأة المسلمة ما زالت محرومة منها في أماكن كثيرة، حيث ما زالت المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية محرومة من الميراث، وتجبر على الزواج بغير كُفءٍ لها، ويأخذ وليُّها مهرها أو بعضاً منه؛ وتجدها في بعض القرى تُجهد في عمل البيت وفي الحقول، وزوجها

يتسكع في المقاهي يحتسي الشاي ويدخن السجائر؛ وتجد التقاليد السيئة متستِّرة بستار الدين، وربما بتواطئٍ ممن يُحسَبُون من رجاله، وإذا لم يعمل الدعاة على إصلاح ذلك الخَلل؛ فسيستغله خصومهم وينساق النسوة خلفهم بحثاً عن مَخرج من ذلك الواقع المُزري.

وما يقال عن تحرير المرأة؛ يقال مِثلُه عن قضية حقوق الإنسان التي تُهدر في بلاد المسلمين، وقضايا النهضة العلمية والاقتصادية، والحرية والشورى والعدالة الاجتماعية، وهي قضايا تعاني فيها المجتمعات الإسلامية من مشاكل حقيقية، وإذا اكتفى الدعاة بالتغني بأن الإسلام سبق غيرَه بأربعة عشر قرناً، وأنه دين العلم والشورى، وأنه سبق غيرَه بقرونٍ إلى حفظ حقوق الإنسان، وأن المسلمين حققوا حضارة من أعظم الحضارات، دون أن يتحول ذلك إلى برامج عملية وحركة اجتماعية يُسهم الدعاة في توجيهها وتنفيذها؛ فإن غيرهم من علمانيين وليبراليين سيعملون على ذلك بطريقتهم الخاصة التي تنتهي بإبعاد الإسلام عن الحياة العامة.

ومن القضايا المعاصرة التي أرى ضرورة النظر إليها بموضوعية وتمحيص وكشف ما فيها من خلل: المصارف الإسلامية، حيث ينبغي تجنُّب البحث عن مسوغات شرعية - ضعيفة وشاذة - تبيح عمل المصارف التجارية التي همّها الأول الربح، والتغاضي عما فيها من نقائص قد تنتهي إلى انحرافات كبيرة تشوِّه صورة تطبيق أحكام الإسلام في الحياة المالية؛ بذريعة أن هذه البنوك مازالت في طور النشأة، وأنها تحتاج إلى تشجيع حتى توفِّر بديلاً للبنوك الربوية!

ونخشى مع غياب النقد أن تتسع زاوية الانحراف يوماً بعد يوم، حيث

إن تلك المصارف في بعض البلاد؛ تتبنّى معاملات لا تختلف عن البنوك الربوية سوى في الاسم، ولا تكاد تجد في تعاملاتها أثراً للمبدأ الذي يقوم عليه الاستثمار الإسلامي؛ وهو الاشتراك في الربح والخسارة، بل تجد الهمّ الأساس للبنك هو أن يدفع مخاطر الخسارة عن العميل، ولا غرابة بعد ذلك في أن تجد لندن وهونغ كونغ وسنغافورة؛ تسعى لأن تكون مراكز استقطاب للمعاملات المالية الإسلامية، وأن كبار بنوكها الربوية قد افتتحت لها فروعاً إسلامية!

وعلينا - عندما ننتقد التيارات الدينية الغالية في المجتمع - أن نكون موضوعيين في تقييم أسباب غُلوِّهم؛ لأن عدم الموضوعية في ذلك، والتغاضي عن الفساد الذي دفعهم إلى الغلو؛ يجعلهم لا يثقون بمن ينتقدهم ويسعى إلى تقويمهم.

إن التركيز على طاعة أُولي الأمر وإطلاق الأمر في ذلك؛ لم يعد له صدى حتى بين عامة الناس، والموضوعية تقتضي الإقرار بالفساد الموجود، ودعوةَ الناس إلى أن ينهجوا أسلم طريق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يلتزموا بضوابط ذلك، حتى لا ينتج عن تغيير منكرٍ منكرٌ أكبر منه، أما التركيز على مجرد النصوص التي تدعو إلى طاعة أُولي الأمر؛ فيُفْقد صاحبَه المصداقية ويجعل الناس لا يهتمون بكلامه.

إننا في وقت انفتح فيه الناس على العالم، وتطلعت الأجيال الجديدة إلى حياة ملؤها الحرية والكرامة والعدل، ولم يعد الناس يسمعون لمن يبرّر الاستبداد وما يصاحبه من فساد مالي واجتماعي ونقص الفرص والخدمات؛ وهم يدركون أن أُولي الأمر لهم حقوق وعليهم واجبات، وعليه فإن تركيز

الدعاة على طاعة أُولي الأمر دون حديث عن حقوق الرعية في الإصلاح؛ سيُفْقِد أصحابَه المصداقية.

الوسطية

ليس الحديث هنا عن وسطية الإسلام، فهذا أمر مفروغ منه، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، ولكن الحديث عن تمثُّل الدعاة بتلك الوسطية، ويبقى ذلك محلّ أخْذ وردّ بين مختلف الجماعات والتيارات الفكرية الإسلامية، حيث يرى كل طرف أنه يمثّل الوسطية، وأن من يخالفه في بعض التوجُّهات والأفكار؛ يَحيد بذلك عن الوسطية، وليس هذا محلّ تحرير مفهوم الوسطية، ولكن نشير إلى بعض مظاهر تجاوز الوسطية، فليس من الوسطية أن نحصر أهل السنة والجماعة في الأشاعرة والماتريدية، أو أن نُخرج الأشاعرة والماتريدية من أهل السنة والجماعة، كما أنه ليس من الوسطية تسفيه المذاهب الفقهية الأربعة التي أسهم في بنائها كبار فقهاء الأمة الإسلامية، ولا من الوسطية التعصب الأعمى لتلك المذاهب والجمود على بعض اختيارات المتأخرين من أتباع المذاهب الفقهية التي تخالف أسس أئمة المذهب. وليس من الوسطية تصنيف كثير من رجال الفكر والإصلاح ضمن التيارات المنحرفة، على الرغم مما لهم من أثر بارز في النهضة الإسلامية المعاصرة.

ولا شك في أن المنهج الوسط هو الذي يعترف للشخص أو للتيار الفكري بفضائله، وينتقد أخطاءه، ولا تجرّه عصبيّة الانتماء إلى التغاضي عن الأخطاء والنقائص في التيار الذي ينتمي إليه، كما لا تجرّه عصبيّة الاختلاف إلى إنكار الإيجابيات والفضائل في التيارات الأخرى.

التركيز على الأسباب لا المظاهر

لكل مشكلة أسباب قد تكون ظاهرة وقد تكون خفيّة، وينبغي على الدعاة عند علاجهم للمشكلات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية؛ ألا يكتفوا بالتحذير من مظاهرها والدعوة إلى حلِّها، بل عليهم دراساتها والاستفادة من أهل التخصص والخبرة للكشف عن أسبابها والبحث عن الحلول المناسبة لها.

ونمثل لهذه النقطة بقضية الوحدة الإسلامية؛ فما أكثر حديث المسلمين عنها على مستوى البلد الواحد وعلى مستوى الأمة كلها، وما أقلّ تحقُّق تلك الوحدة في الواقع، والمشكلة أننا بمجرد آمال ومناشدات؛ نريد أن نحقق إنجازاً كبيراً قال الله تعالى عنه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ (الأنفال).

إن الوحدة لا تتحقق بكثرة الكتابات والخطب التي تدعو إليها، فلها أسباب موضوعية لا تتحقق بدونها، وما دمنا لا نعالج بموضوعية أسباب التفرق والتناحر؛ فلن تتحقق وحدةٌ حتى لو ملأنا عالمنا الإسلامي بالمقالات والخطب الداعية إلى ذلك.

- لن تتحقق وحدة مع انعدام العدل في المجتمع، فالوحدة إنما تتحقق عندما يشعر كل طرف بأن الأطراف الأخرى لا تهضم حقوقه ولا تستغلها لمصالحها الخاصة في حال الوحدة.
- ولن تتحقق الوحدة مع عدم تدريب أبناء المجتمع على أساليب التعامل مع الاختلاف وإدارته، فالاختلاف جزء من الطبيعية البشرية، وإذا كنّا نريد من الوحدة إنهاء الخلافات فهذا حلم لن يتحقق، وإنما طريق الوحدة في تعليم الناس وتدريبهم عملياً منذ الصبا (في الحضانة،

والمدرسة، والأسرة، ومكان العمل)؛ على كيفية إدارة الاختلاف والتعامل معه بصورة إيجابية.

- ولن تتحقق الوحدة مع طغيان الأنانية وغياب السلوك الاجتماعي الذي يؤمن صاحبُه بأنه لن يعيش حياة سعيدة إلا باحترام القانون والحقوق المشتركة بين أفراد المجتمع، وأن مصالحه الشخصية لا تتحقق بشكل إيجابي إلا مع احترام مصالح الآخرين والمصالح المشتركة.
- ولن تتحقق الوحدة دون اعتبار النقد أداة من أدوات تصحيح الخطأ والانحراف في المجتمع، لا بوصفه أداة من أدوات التحدي والتحقير.

هذه – في اعتقادي – أمراض اجتماعية ينبغي على الدعاة أن يتوجوا بجِد إلى معالجتها على جميع المستويات؛ بالتوعية والتربية العملية القائمة على مبادئ الإسلام وأخلاقه السامية، لا بالبكاء على الوحدة الإسلامية التي لن تتحقق إلا بتحقق أسبابها ومقوماتها، وأساس ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ (الرعد: ١١)، فما لم نغيّر ما بأنفسنا من أسباب الفُرقة والتناحر؛ لن يغيّر الله ﷻ حالنا من الفُرقة إلى الوحدة بمجرد دعوات وخطب ومَراثي لا يصحبها التحرك العملي الإيجابي.

والأمر نفسه يقال عن النهضة الإسلامية، فالنهضة لها مقومات وأسباب عملية لا تتحقق بدونها، وينبغي على الدعاة التركيز على تفاصيلها، والإسهام في وضع وتنفيذ البرامج العملية التي تحققها على المدى الطويل مهما كان الإسهام بسيطاً.

لقد بات واضحاً للمسلمين أن مفتاح نهضتنا في العودة إلى الإسلام، ولم تعد المشاريع العلمانية والقومية ذات جاذبية كبيرة، فهناك نقص واضح في البرامج التي تحوِّل هذه القناعة إلى واقع، وهذه من القضايا التي ينبغي على الدعاة التركيز عليها.

فقه الأولويات

المسلم المؤمن هو من يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات، ويسعى جهده في الالتزام بالسنن والتزود من الفضائل والرغائب، والداعية يدعو الناس إلى كل ذلك، ولكن قد يكون ظرف لا يمكن الجمع فيه بين جميع ذلك، فيتطلب الأمر مراعاة الأولويات في دعوته، ومن هنا كان التدرّج في التشريع والدعوة.

ولمَّا كان التدرُّج في التشريع قد انتهى بانتهاء عصر التشريع، ولم يعُد لأحد بعد ذلك أن يُحلّ حراماً أو يحرم حلالاً، فإن التدرُّج في الدعوة ما زال قائماً، وأساسه حديث معاذ بن جبل ﷺ لما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن، حيث قال له: (إنك ستأتي قوماً أهلَ كتاب، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، فإن هم أطاعوك بذلك؛ فأخبِرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك بذلك؛ فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك بذلك؛ فإياك وكرائمَ أموالِهم، واتق دعوةَ المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[1]. فالتدرج في الدعوة يكون حسب متطلبات المرحلة وما تسمح به الظروف، وغالباً ما يكون ذلك في البيئات الجديدة في الإسلام، أو البيئات التي طُمِسَت فيها معالم الإسلام أو كادت، فيحتاج أصحابها إلى التدرّج معهم في فهم الإسلام وتطبيقه.

وينبغي ألا ينتهي التدرُّج إلى إخضاع شرائع الإسلام لظروف البيئة ورغبات أصحابها (كما حدث للنصرانية مع الرومان)، بل تكون غاية التدرّج الارتقاء بأبناء تلك البيئة إلى الإسلام الكامل في مراحل التربية الروحية، وتعليم العلم الشرعي.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا.

وتكون الحاجة إلى فقه الأولويات عند تدافع المصالح فيما بينها، أو تزاحم المفاسد فيما بينها، وعند تعارض المصالح مع المفاسد، فتُعمل القواعد الفقهية المعروفة التي تحكم ذلك:

- فعند تدافع المصالح تقدم المصلحة الأكبر على الأصغر.

- وعند تزاحم المفاسد تدفع المفسدة الأكبر مع تحمُّل المفسدة الأقل.

- وعند تعارض المصالح والمفاسد يكون درء المفاسد مقدماً على جلب المصالح عند تساويهما أو تقاربهما، فإن كان بينهما تفاوت كبير قُدِّم الأكبر، فإذا كانت المصلحة أكبر؛ جُلبت مع تحمُّل المفسدة المقابلة، وإذا كانت المفسدة أكبر؛ دُفعت المفسدة مع تحمُّل ضياع المصلحة المقابلة.

تطبيق الشريعة بين الشمول والاختزال

نرى البعض - في دعوته إلى تطبيق الشريعة الإسلامية - يصرف جُلّ اهتمامه إلى تطبيق الحدود إلى حدّ أنه يجعلها عَلَمًا على تطبيق الشريعة، وهذا اختزال لشريعة عامة جاءت لتحكم جميع جوانب الحياة، حيث العقوبات جزء بسيط منها، وهو اختزال أعطى صورة خاطئة عن تطبيق الشريعة لدى غير المسلمين، وحتى بين بعض المسلمين، وقد يقود إلى هذا التصور اعتقاد البعض أن الحدود هي أهم شيء في الشريعة، وقد غضب الرسول ﷺ من أسامة بن زيد ﵁ لما شفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وقال له: (أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟)[(١)].

(١) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان.

ومما يدعم اعتقاد هؤلاء أن مصطلح "الحـدود" في كتـب الفقـه؛ يطلَق على العقوبات المقدرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، كما أن من أسباب ذلك أن العقوبات كفيلة بتربية الناس وتكوين مجتمع إسلامي ملتزم.

وفي القرآن الكريم مواضع وردت فيها "حدود الله":

مرة في الآية (١٨٧) من سورة البقرة[(١)]

وستّ مرات في الآيات (٢٢٩-٢٣٠) من سورة البقرة[(٢)]

ومرتان في سورة النساء: (١٣-١٤)[(٣)]

ومرة في سورة التوبة (١١٢)[(٤)]

---

(١) ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (البقرة).

(٢) ﴿ ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ (البقرة).

(٣) ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ ﴾

(النساء).

(٤) ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (التوبة)

ومرة في سورة المجادلة (٤) (١)

ومرتان في سورة الطلاق (١) (٢).

وردت الآيات مرة في أحكام الطلاق وحقوق الزوجة عند الطلاق وما يتبعه، ومرة في أحكام الإرث (التي لا يلتزم بها بعض المسلمين فيَحرمون المرأة من الميراث)، وبعضها في أحكام الله تعالى عموماً.

والخلاصة أن حدود الله تشمل جميع أحكامه؛ لا فرق فيها بين عدم الإضرار بالزوجة والاعتداء على حقوقها في الطلاق، وبين احترام شروط الصيام والاعتكاف، وبين معاقبة السارق والزاني وشارب الخمر، فإذا كان السارق يُعاقَب لأنه اعتدى على حقوق الناس، فإن الذي يَحرم المرأة ميراثَها أو حقوقَها عند الطلاق؛ يعتدي على حق من حقوق الناس، ويتعدى حدود الله كالسارق والزاني، وكما نحرص على تطبيق حدود الله في السرقة والزنا والخمر، فعلينا أن نحرص على تطبيق حدوده في الطلاق والميراث وحِفظ أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم.

وفي بلد مسلم؛ مقاطعة يحكمها منذ سنين طويلة حزب إسلامي يحمل لواء الدعوة إلى تطبيق الشريعة؛ قام الحزب بصياغة "قانون الحدود"، وأجازه البرلمان المحلي، ولكن الحكومة الفيدرالية جمّدت القانون ورفضت

---

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ (المجادلة)

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ (الطلاق)

السماح بتطبيقه، والزائر لتلك المقاطعة لا يرى - للأسف- اختلافات كبيرة بين نمط الحياة فيها ونمط الحياة في المقاطعات الأخرى، وقد حدثني تاجر في أسواقها بما لا يختلف عنه حال أسواق البلاد الإسلامية من مفاسد، والناظر في الإحصاءات التي تُنشر سنوياً عن الآفات الاجتماعية في الدولة (المخدرات، زنا المحارم، الطلاق، الجرائم) يجد تلك المقاطعة تحتل المراكز الأُولى في كثير من تلك الجرائم !

والشاهد هنا أن البعض قد يختزل تطبيق الشريعة في تطبيق العقوبات والحدود، في حين نجد تقصيراً كبيراً وفشلاً واضحاً في تربيّة الناس على مبادئ الإسلام، والالتزام بحدود الله عز وجل في مجال الأسرة والطلاق، والتجارة، وحقوق اليتامى والضعفاء، وغيرها من حدود الله عز وجل؛ وبعبارة أخرى: نجد تقصيراً في إيجاد مجتمع مسلم يلتزم حدود الله تعالى في كل حياته اليومية.

ولقد صدر في بلد مسلم قانون للزنا تطبيقاً لحدود الله تعالى، ثم لم نجد في مقابل ذلك تطبيقاً لحدود الله في مجال الأخلاق والآداب العامة، فتجد في البلد نفسه الأفلام الهندية الراقصة وسيلةَ الترفيه الأكثر انتشاراً في البلد (في وسائل النقل العامة، والبيوت، ودور السينما وغيرها)، وتجد الصور الفاضحة لتلك الأفلام تملأ جدران المدن وصفحات الجرائد، ثم يظنون أنهم بإصدارهم لقانون الزنا قد طبَّقوا حدود الله وأزاحوا المسؤولية عن عاتقهم!

وليس المراد هنا التقليل من شأن تطبيق العقوبات الشرعية، فتلك حدود الله تعالى التي لا نملك حيالَها سوى التنفيذ والامتثال، ولكن المراد أن

العقوبات في الشريعة ليست مقاصد، فالمقصد تعبيد الناس لله رب العالمين، وإيجاد مجتمع مسلم خالٍ من الفواحش والاعتداء على حقوق الآخرين، وما العقوبات إلا وسائل قُصِد منها الزجر، وكما جاء عن عثمان ﷺ: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)؛ فالهدف تربية الناس على الوقوف عند حدود الله تعالى، وتوفير بيئة صالحة تساعدهم على الاستمرار في ذلك؛ وهذا هو الجانب الذي ينبغي أن تتوجه إليه العناية، وتُبذل في سبيله الجهود، فإنْ بدَر مع ذلك من أحد جريمة تستحق عقوبة؛ عُوقِب.

ونخشَى أن يصير اختزال تطبيق الشريعة في العقوبات مَسلكاً خَفِيًّا للهروب من مسؤولية تربية المجتمع على التزام حدود الله، وهي مسؤولية ثقيلة تحتاج إلى جهود وتضحيات كبيرة على مدى طويل قد يصعب الصبر عليه، فبدلاً عن بذل الجهد على المدى الطويل، نلجأ إلى اختصار ذلك في العقوبات، ظنًّا أن العقوبة كفيلة بالتربية. ومَثل هذا كمَثل الأب الذي يختزل تربية أبنائه في معاقبتهم على أخطائهم، دون أن يمنحهم من وقته وجهده لتعليمهم الفضائل وتدريبهم عليها إلى أن ترسخ في نفوسهم، وهو جهد لا يصبر عليه الكثير من الآباء، فيلجؤون إلى التنفيس عن غضبهم بالضرب والعقاب لأولئك الأطفال الذين تعلموا الرذائل من بيئتهم التي يعيشون فيها فمارسوها، ولم يجدوا في المقابل من يدرِّبهم ويرسِّخ في نفوسهم الفضائل، ويوفّر لهم بيئة تُعينهم على التحلِّي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

خاتمة

إن مهمة الدعاة: تحقيق البلاغ المبين، لـذي يرشـد النـاس ويـوجههم، ويترك فيهم أثراً عملياً يقود إلى بناء المجتمع الإسـلامي المنشـود، وحـتى يكون الخطاب فعالاً؛ لابد من أن يبذل فيه صاحبه جهـداً كـبيراً لإعـداده، ولا يكون الإعداد جيداً إلا إذا سبقه تحديدٌ دقيق لأهداف ذلك الخطـاب، واختيار المادة العلمية المناسبة لمقامه الزماني والمكاني والأشخاص الموجَّه إليهم، ثم بعد ذلك لابد من وسيلة مناسبة لعرض تلك المـادة العلميـة بمـا يحقق تلك الأهداف، وحتى يكون مضمون الخطاب فعالاً، لابد من التحلي بالوسـطية وأدب الخلاف، ومراعـاة الأولويات، والاسـتجابة لمتطلبـات الواقع، والتركيز على الجانب العملي، والموضـوعية في العـرض والنقـد، ومعالجة أسباب المشكلات وأصولها لا مجرد التركيز على المظاهر.

توصيات مقترحة

- زيادة الاهتمام بموضوع التدريب العملي على أساليب الدعوة ووسائلها.
- زيادة اهتمام الدعاة بالمجتمع المدني والانخراط العملي في بنائه وفق تعاليم الإسلام، بوصف ذلك من أهم عناصر بناء المجتمع الإسلامي المنشود.
- تشجيع ثقافة الحوار والنقد بين أصحاب الخطاب الديني.
- سعي الدعاة إلى توسيع ثقافتهم خارج العلوم الشرعية؛ كي يتمكنوا من إيجاد خطاب يستجيب لمتطلبات العصر وتحدياته.